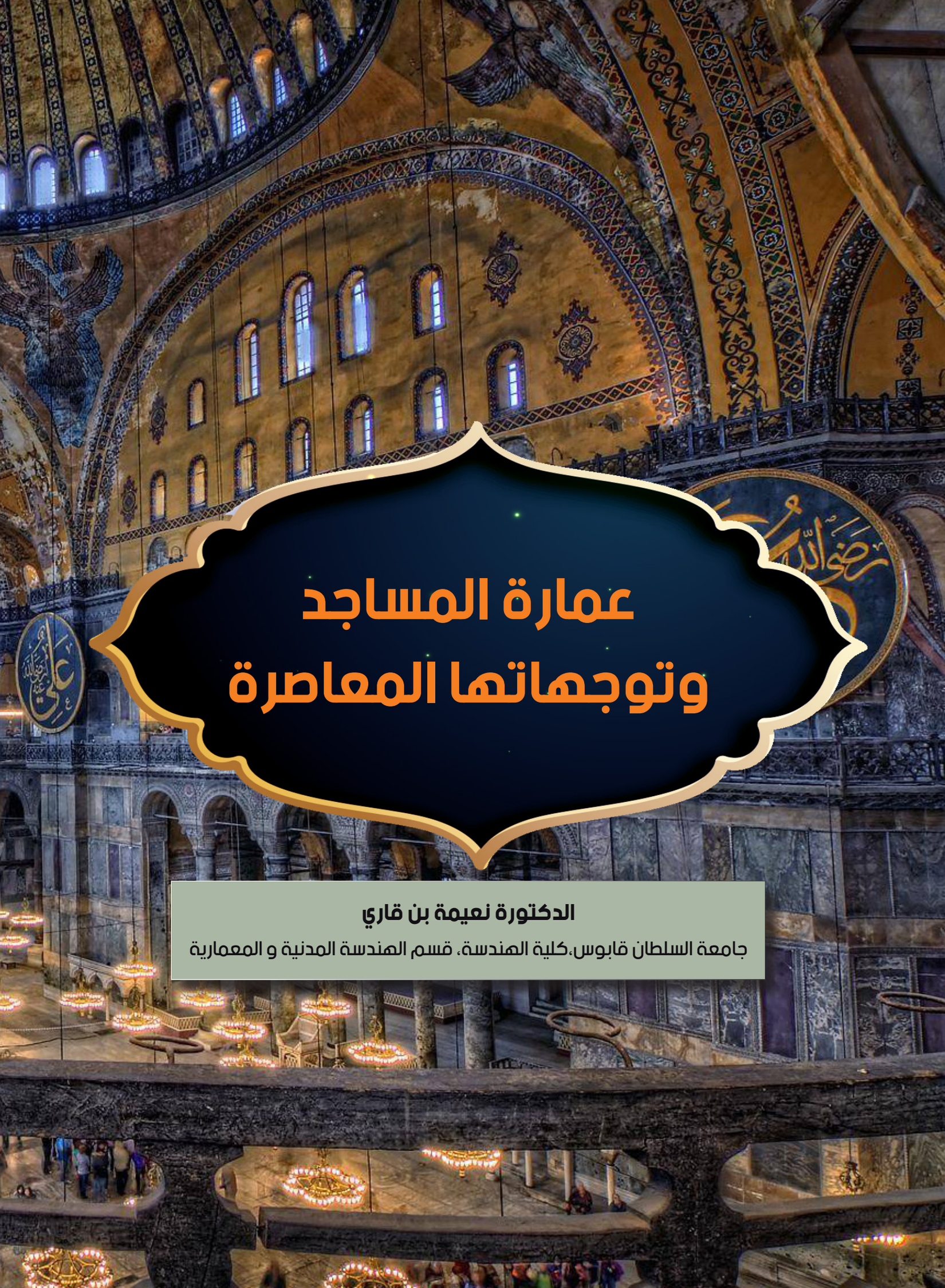

عمارة المساجد وتوجهاتها المعاصرة

الدكتورة نعيمة بن قاري

جامعة السلطان قابوس،كلية الهندسة، قسم الهندسة المدنية و المعمارية

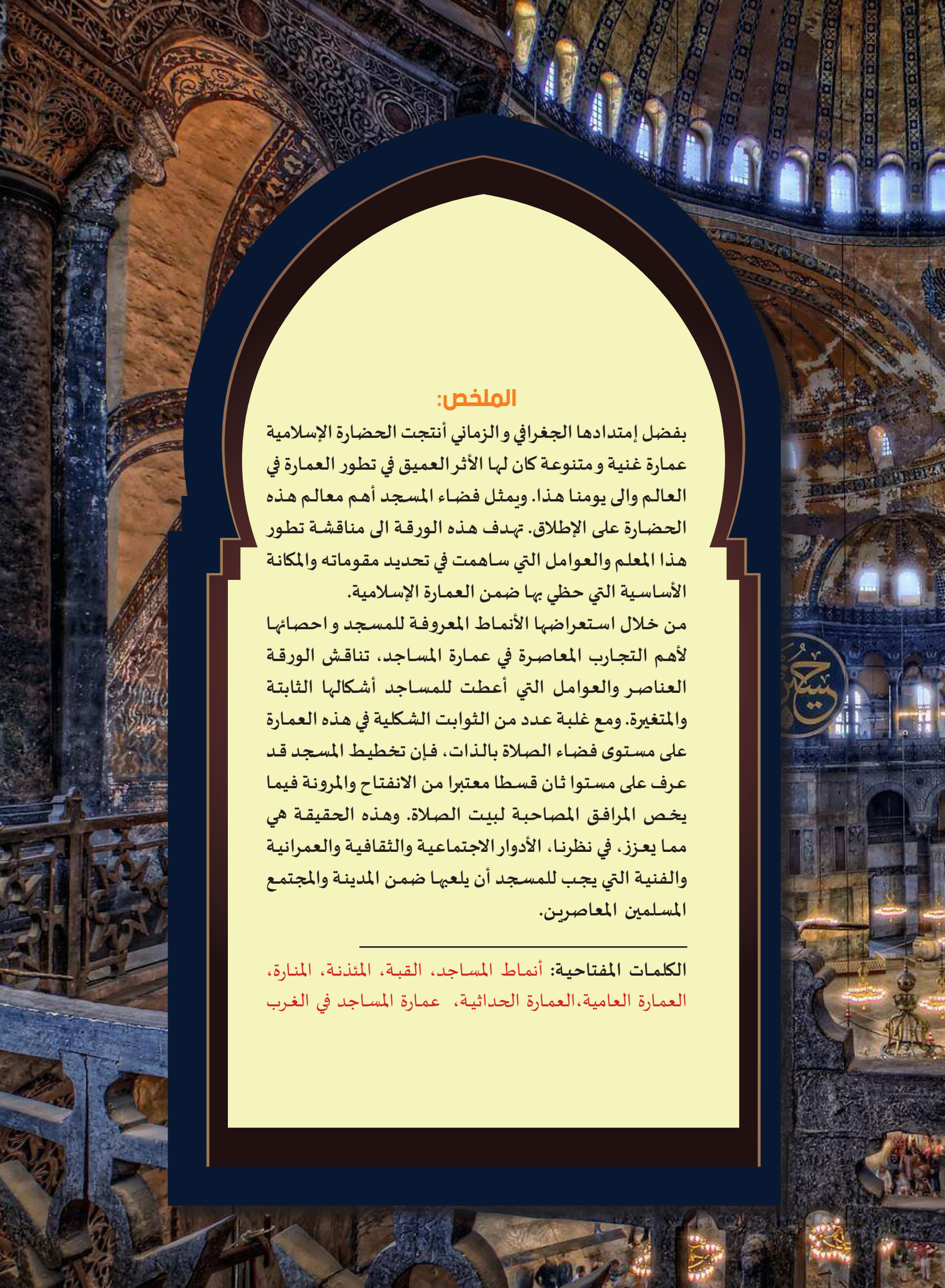

الملخص:

بفضل إمتدادها الجغرافي و الزماني أنتجت الحضارة الإسلامية عمارة غنية و متنوعة كان لها الأثر العميق في تطور العمارة في العالم والى يومنا هذا. ويمثل فضاء المسجد أهم معالم هذه الحضارة على الإطلاق. تهدف هذه الورقة الى مناقشة تطور هذا المعلم والعوامل التي ساهمت في تحديد مقوماته والمكانة الأساسية التي حظي بها ضمن العمارة الإسلامية.

من خلال استعراضها الأنماط المعروفة للمسجد و احصائها لأهم التجارب المعاصرة في عمارة المساجد، تناقش الورقة العناصر والعوامل التي أعطت للمساجد أشكالها الثابتة والمتغيرة. ومع غلبة عدد من الثوابت الشكلية في هذه العمارة على مستوى فضاء الصلاة بالذات، فإن تخطيط المسجد قد عرف على مستوا ثان قسطا معتبرا من الانفتاح والمرونة فيما يخص المرافق المصاحبة لبيت الصلاة. وهذه الحقيقة هي مما يعزز، في نظرنا، الأدوار الاجتماعية والثقافية والعمرانية والفنية التي يجب للمسجد أن يلعبها ضمن المدينة والمجتمع المسلمين المعاصرين.

الكلمات المفتاحية: أنماط المساجد، القبة، المئذنة، المنارة، العمارة العامية،العمارة الحداثية، عمارة المساجد في الغرب

المقدمة

يهدف هذا البحث الى دراسة عمارة المسجد والتحولات التي طرأت عليها خلال الخمسين سنة الأخيرة؛ وهي فترة مهمة في تاريخ العمارة في العالم نظرا للتطورات الكبيرة التي شهدتها. ويسعى البحث إلى تصنيف الأنماط المختلفة للمساجد، وذلك ليس على أساس مقوماتها الشكلية والمعمارية فحسب وإنما على أساس مصادر تمويلها ودور المجتمع المدني في بناءها كذلك. كما ستحاول هذه الدراسة استكشاف طبيعة العلاقة التي أرساها المجتمع المسلم مع محيطه الإجتماعي و العمراني من خلال اختياره لنمط العمارة التي اتّخذها لمسجده. كما أننا سنناقش نقطة مهمة في عمارة المساجد في القرن الواحد والعشرين، والتي تتعلق بالجوانب الدينية و»المُقدسة» مما يمس مكونات المسجد التي لا ترتبط بالضرورة وبشكل مباشر بالممارسة الدينية أو الرأي الشرعي.

المنهجية:

تناول عدد من المختصين في تاريخ العمارة الاسلامية إشكالية عمارة المساجد المعاصرة. وإذ نحذو حذوهم في هذه الدراسة، فإننا نريد بذلك اكمال مناقشة ما بلغه المسجد في المجتمع المسلم من حيث شكله ورمزيته ودَوره في المدينة أو المستوطنة، وأيضا من حيث طرق وآليات بنائه والتيارات الفنية التي أثرت في أشكاله.(Serajeldin, I. 1989) و(Khan, H. 1990). يقوم هذا البحث بدراسة ما يزيد عن خمسين مسجدا وجامعا في شتى أنحاء العالم ومراجعة ما كُتب عنها من وصف ونقد وتأريخ. فالمنهجية كانت وصفية وتحليلية بالنسبة للمبنى الواحد ومُقارِنَة بالنسبة للمباني فيما بينها. وقد رجعنا أثناء البحث إلى أرشيفات موقع الآغا خان (www.archnet.org) الذي يُعتبر مصدرا أساسيا فيما يخص تاريخ العمارة الاسلامية على مدى عصورها المختلفة وإلى يومنا هذا. وقد انتقينا معظم أمثلتنا في هذه الدراسة من هذا الموقع مع التركيز على تلك التي حازت على جائزة الآغا خان في مختلف دوراتها. المصدر الثاني لهذه الدراسة كان نتاج ما وقفنا عليه من معالم خلال أسفارنا أو قراءاتنا في هذا الميدان.

وفي منهجية بحثنا التحليلية والتصنيفية، اتخذنا منهج "غرابار" (Grabar, O.) التاريخي ومنهج حسن الدين خان وسراج الدين .(Serajeldin, I. 1989) و(Khan, H. 1990) التحليلي والتصنيفي، وذلك من أجل تقديم لوحة تحليلية و تصنيفية لعمارة المساجد وتطورها خلال النصف الأخير من القرن الماضي. كما لجأنا في بعض الأحيان إلى الاستشهاد بمعالم أقدم قليلا، ترجع إلى مختلف فترات تطور العمارة الإسلامية قبل الحرب العالمية الأولى.

ويُعتبر هذا المسح المُوسّع للمساجد، عبر التاريخ وفي مناطق جغرافية متباعدة، منهجيا. لأن هذه العمارة وبحكم وظيفتها الأساسية (الصلاة) بقيت متواصلة زمنيا ومكانيا. ويجدر التنويه الى أنّ موضوع المسجد والعدد الهائل والمتنوع من مبانيه وكذلك طول الحقبة الزمنية التي شهدت تطور عمارته قبل وصولها الى عصرنا، يحثنا على دراسة هذه العمارة من منطلقين أساسيين وهما الطابع المعماري أولا، وآليات التمويل و التصميم ثانيا. وهذان العنصران يتشابكان ويتداخلان على مستوى العديد من النقاط، ومع ذلك، فإن توخينا في بحثنا هذا طريقة جعلتنا ونحن نحلل المساجد من حيث طابعها المعماري، لا نعتبر في الأمثلة التي نوردها عنصر آليات التمويل واتخاذ القرار. ونفس الموقف اتخذناه خلال مناقشتنا لآليات التمويل.

وانطلقت دراستنا من عدد من الملاحظات التي رصدتها الأدبيات المتخصصة في عمارة المساجد والتي قمنا بمناقشتها:

1- شهدت عمارة المسجد خلال تطورها، قُدسية (sacralisation) متنامية ارتبطت بمكوناتها وأشكالها، بينما فقد المسجد، شيئا فشيئا، من دوره الاجتماعي والسياسي، الذي اضطلع به قصر الحكم (أو الحكومة)، كما فقد دوره التعليمي الذي تصدت له المدارس والكليات الحديثة.

2- الانقطاع في تطور اللغة المعمارية بين معالم ما قبل الحداثة وحتى في فترة الاستعمار الغربي والمعالم الحديثة التي أفرزتها المجتمعات المسلمة. و كان لهذا الانقطاع الأثر الكبير في ضياع أو ضعف اللغة المعمارية في البلدان المسلمة سواءا في بناء المسجد أو غيرها.

3- ظهور نوع جديد من السلطات المركزية كمُمولين للبناء، وهم الحكومات وممثلي الحكم في الدول المستقلة. وبادر العديد من هؤلاء إلى بناء الجوامع الضخمة حيث كان الهدف من ذلك تقديم خدمة للشعب والتعبير، في ذات الوقت، على القوة والسلطة الفردية أو الحزبية أو الطائفية أو القبلية وغيرها، وذلك على غرار ما حدث في عهد الأمراء و الملوك و السلاطين.

4- من الملاحظ أن قرارات بناء المساجد ومواقعها، وحتى مكوناتها وأنماطها المعمارية، أصبحت تتخذها الهيئات المختصة في التخطيط العمراني للمناطق. فأصبح المسجد وموقعه وطابعه وسعته والمرافق الملحقة به تخضع لقوانين التخطيط العمراني (Plans Directeurs et Zoning). وهذه الممارسة الحديثة في تخطيط المدن أهملت مركزية المسجد في النسيج العمراني وأضعفت من وظيفته الإجتماعية، كما قلّصت من حرية المجتمع المدني في الاختيار وأخذ القرار وأضعفت دور المعماري واسهاماته الابداعية. فالهيئات المحلية المسؤولة عن تخطيط المدن والأحياء

أصبحت مسؤولة أكثر من الأفراد أو جماعات الأحياء في بناء مساجدها وجوامعها. وغالبا ما يكون قرارها مبني على تطبيق حرفي لقوانين التخطيط المستوحاة في معظمها من القوانين والمعايير الغربية (standards). بل رأينا كيف تفرض هذه الهيئات، أحيانا، نمطا معماريا موحدا لفئات المساجد المختلفة وتطالب من يريد أن يُموّل بناء مسجد في حيه أو ديرته أن يتقيد بهذه الأنماط والمواقع والمرافق المقررة مسبقا وذلك دون أي نقاش أو تعاط مع الأهالي لمعرفة تفاصيل احتياجاتهم في هذا المجال. وأدى هذا الأسلوب من التعامل إلى تحويل إضعاف علاقة الناس بالمسجد و تحويلها إلى علاقة وظيفية محضة، وبات مثَلُه في ذلك كمثل أي مرفق عمومي، لا يختلف في مقاربة الناس له عن دار العدالة أو البلدية أو المستشفى.

أولا: عمارة المسجد بين التكليف الديني والتقديس

عند الحديث عن مصطلح القداسة في عمارة المساجد علينا أن نفصل بين المسجد كمبنى والمسجد كمكان للصلاة والتعبُّد، أي المسجد كمركب فضاءات ذات وظائف مختلفة والمسجد كمؤسسة إجتماعية ودينية. أما عن بناء المساجد وتعميرها بالصلوات فيمكننا اعتباره تكليفا دينيا، وذلك من منظور الخطاب القرآني والأمر الإلهي الذي نزل على النبي إبراهيم عليه السلام واستجابته له، وفي ذلك دعوة واضحة إلى كل الأنبياء من بعده وإلى خاتمهم سيدنا محمد (ص) ببناء بيوت الله[1].

ومن هذا المنطلق يمكننا القول أن بداية عمارة المساجد كانت تكليفا دينيا وليس مبادرة مدنية لادينية كما زعم بعض الباحثين (Hillenbrand, R. 2004). فوجوب إقامة المسجد أو بيت العبادة مسألة واضحة في الآيات المذكورة. ومع ذلك فإن الباري عز وجل لم يقيد الناس بالشكل والمكونات والمفردات والمواد وما إلى ذلك. ثم بعد ذلك، وضع الفقهاء شروطا، وهي أن تكون الأرض حلالا غير مغتصبة، طاهرة غير نجسة وأن تكون القبلة موضحة فيها. أما عن أسلوب وآليات بناء المسجد فالوضع يختلف قليلا. فالقرآن والسنة والفقهاء لم يذكروها من حيث المبدأ فضلا عن تفصيلها، غيرأنّ أول مسجد بني للناس بحضور الرسول (ص) كانت آلية بنائه مدنية، وحسبما وصلَنا في كتب السيرة. لقد شارك الجميع في إنشاء مسجد النبي بمواد وتقنيات محلية مع مراعاة اتجاه القبلة والقواعد الخاصة بالمجتمع المدني في ذلك الوقت.

نظرا لكل ما سبق، فنحن نتفق مع من يذهب الى القول بأن الأشكال والمكونات الفضائية والتفاصيل المعمارية لهذا المعلم المقدس ليست مُقدّسة (Haider, G. 1996). فبعض عناصر المسجد التي تُعطي معنى لوظيفته الأساسية كمكان للصلاة وهي: المكان المسقوف للصلاة والمحراب والحائط (أو السُترة) الذي يحدد فضاء الصلاة، لابد منها ويمكنها التشكُّل والتواؤم مع التطور الهائل في أشكال العمارة المعاصرة بصفة عامة. ولكن القبة و المنارة (أو المئذنة) والباحة والأروقة والأسقُف بأشكالها المتعددة، هي عناصر لا قداسة لها ووجودها ليس شرطا كي يكون المبنى مسجدا. بل لعلّه من المستحب تجاوز هذه الصورة المهيمنة على عمارة المساجد وإعادة إبداع فضاءات وتفاصيل معمارية تُعبر عن العصر الذي نعيش فيه و تعكس فهم المجتمع المسلم الصحيح لتاريخه و تاريخ عمارته و لدوره في البلاد التي يعيش فيها و لمسؤوليته في الأرض التي أستخلفنا الله فيها.

ثانيا: الأنماط المعمارية للمساجد:

حاولت هذه الدراسة أن ترصد أكبر عدد ممكن من أنماط عمارة المساجد التي ظهرت خلال النصف الأخير من القرن العشرين وإلى يومنا هذا. وحاولنا أن نعتبر في هذا الاختيار التوزيع المكاني و الزماني للمعالم كي نشمل أكثر المناطق التي يستقر فيها المسلمون في عصرنا هذا، سواء في البلاد الاسلامية أم غيرها. كما كانت أولويات الاختيار تتعلق بالمعالم المرشحة لنيل جائزة الآغا خان للعمارة، وخاصة تلك التي حازت على هذه الجائزة. وذلك لاعتماد هذه الجائزة على آليات دقيقة في اختيار المباني التي لا شك في قيمتها الابداعية و التي مضى على بنائها واستعمالها مدة سنتين على الأقل. كما أدرجنا في أمثلتنا بعض المعالم التي وقفنا عليها أو وصلتنا أخبارها عبر الأدبيات المختصة. وبعد دراسة أنماط ما يقرب من خمسين مسجدا و جامعا، رأيناها تمثل الأنماط والأشكال الطاغية في عصرنا هذا، توصلنا الى اقتراح تصنيف لهذه العمارة حسب الأنماط التالية:

1- النمط المحلّي أو العامّي (Style Vernaculaire)

قد يكون النمط المحلّي في عمارة المساجد هو النمط الأقدم والأكثر استمرارا في تاريخ العمارة الإسلامية. ففي الماضي كانت المجتمعات التقليدية تنظم فضاءات مساجدها حسب انتماءاتها القبلية أو العنصرية أو الطبقية، وكان لكل مجموعة عمدة أو شيخ أو مالك أراضي يشرف على مسألة تمويل المسجد، ولكن البناء يكون على يد الأهالي، والقرارات ترجع في معظم الأحيان إليهم و بمساعدة معلّمي البناء في غياب المهندس المعماري بالمعنى المهني المتعارف عليه حاليا. والجماعة تكون مسؤولة كليا على نمط عمارة المسجد بل وعمارة المنطقة التي تعيش فيها. وهذه الممارسة قريبة من الأسلوب الذي بنيت به المساجد في وقت الرسول (ص) وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده، وهي نفس الممارسة التي أفرزت فيما بعد مساجد القرى والحارات و المدن القديمة في العالم الإسلامي وحتى في وقتنا الحالي مثل مسجد «ياما»

في النيجر (Yaama Mosque - Niger) الحائز على جائزة الآغا خان للعمارة في سنة 1986، أو مسجد "نيونيو" في مالي (Niono Mosque - Mali) الحائز على نفس الجائزة في 1983 (شكل 1).

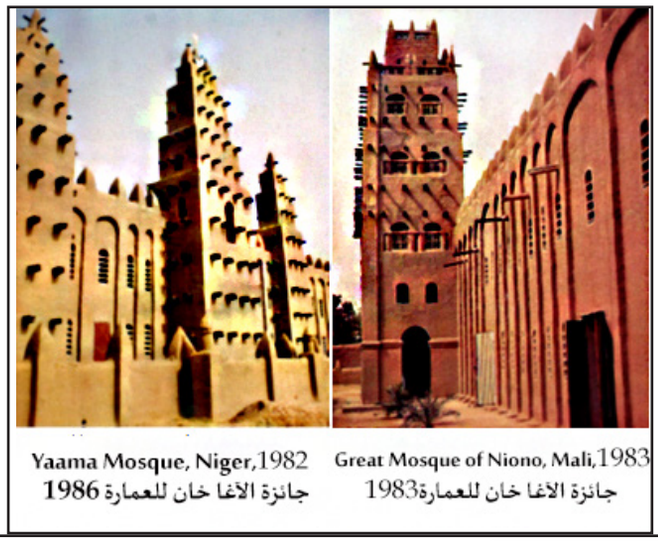

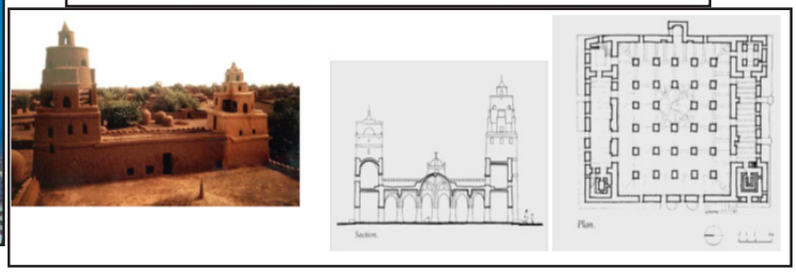

-شكل 1 : أمثلة على النمط العامي أو المحلي (Vernaculaire) مصدر: جائزة الآغا خان -

ولأنه إنما يُعتمد على نفس تقنيات ومواد البناء، يكون المسجد شبيها في شكله ونمطه المعماري ببيوت القرية أو الحارة وباقي مرافقها. وهو لا يحتاج إلى ما يميّزه كمسجد لأنه معلوم عند مستعمليه جمعيهم بما أنهم هم الذين بنوه. وإذا حدث وتميز عن باقي المباني، فذلك لأهمية صلاة الجمعة التي تستقطب عددا كبيرا من المصلين و بعضهم يمكن أن يأتي من خارج البلدة أو الحي لأداء هذه الصلاة.

ولكن الحداثة والعولمة قلّصت من مثل هذه الممارسات في بناء المساجد حيث أمست هذه الأخيرة مثل غيرها تخضع لقوانين وقرارات الحكومة أو ممثليها المحليين في ما يخص المبنى وأنماطه المعمارية. وكان لهذا التغيير الجوهري في مراكز القرار وتقنيات البناء الأثر الكبير في شكل وموقع وحتى رمزية وأهمية المسجد في المدينة أو التجمع السكاني. وكانت الأمثلة التي أشرنا إليها خلال بحثنا إنما نجحت بسبب أنها حافظت على تقنيات وقوانين البناء وكيفية استعمال المواد الإنشائية وحسن بلورتها، وإعطائها لغة رمزية خاصة بالعمارة المحلية.

ومن جهة أخرى وقفنا في شتى أنحاء الوطن الاسلامي على أمثلة سلبية عديدة أنتج فيها البناء الجماعي، البعيد عن مقومات العمارة المحلّية، مساجد رديئة التصميم وضعيفة الإنشاء. وقد امتد ذلك في بعض الأحيان إلى ترميم أو إعادة بناء المساجد التاريخية على يد الأهالي بغرض استعمالها من جديد، فيكون نصيب المعلم إما التشويه أو إعادة بناءه، فينتج بناء غريب لا يمتُّ الى المعلم الأصلي و لا الى الشخصية المحلية بأي صلة.

2 - النمط التأريخي

يتمثّل هذا النمط في الرجوع الى أنماط المساجد المرتبطة بحقبة معينة «كلاسيكية» من تاريخ العمارة الإسلامية واتخاذ هذا النمط كنموذج يقوم المعماري بتقليده كليا أو جزئيا. وغالبا ما يقلِّد المعماري أكثر من نموذج ويكون تصميمه مزيجا من الأنماط المختلفة مما تنتج عنه أشكال إنتقائية (eclectic) غير واضحة الأصل(الشكل 2). ونادرا ما يعطي هذا العمل تركيبا متجانسا مثل الذي يمثله (الشكل3).

-شكل 2 :أمثلة على جوامع ذوات أنماط تأريخية و لكن انتقائية (eclectic) في تفاصيلها الداخلية -

-شكل 3 : أمثلة على جوامع ذوات أنماط تأريخية متناسقة في مظهرها الخارجي و تفاصيل فضائها الداخلي المصدر: جائزة الأغا خان -

3- الطابع الإسلامي الموحد (Pan-Islamic Style)

من التطورات التي لوحظت خلال الخمسين سنة الأخيرة، لجوء أكثر مصمّمي ومتّخذي القرار في بناء المساجد إلى بعض الرّموز والأشكال التي يرونها تعبّر على الهوية الاسلامية للمبنى دون الاقتداء بطراز تاريخي بعينه. وفي مقدمة هذه الرموز التي أصبحت الطابع الإسلامي الموحد (Pan-Islamic) المنارة (أو المئذنة) والقبّة. وقد أصبح هذا الطابع الأكثر هيمنةً على عمارة المساجد في عصرنا الحاضر في شتى أقطار الأرض. وفي الوقت الذي نشهد فيه تشويها للإسلام وحضارته على مستوى العالم، حيث تُمارس ضد المسلمين في الشرق والغرب الضغوطات الثقافية والنفسية وحتى المادية؛ نلاحظ أن عمارة المساجد في هذه المجتمعات أصبحت تعكس تمسكًا قد يصل الى حد التعصُّب لصورة نمطية ثابتة للمسجد. وذلك على الرغم من أن هذه الصورة لا تعبر على معنى عالمية رسالة الاسلام و انفتاحه على الإنسانية، وإنما تعكس رغبة في إعلان الاختلاف في وجه المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يرفضها، وبالتالي الانغلاق والتقوقع حول معاني سطحية ونسيان المباديء العميقة. فهذا مما رسّخ فكرة أن "قداسة" المسجد و هويته مرتبطة بوجود المنارة والقبة فيه أيا كان شكل هذه المنارة أو نوع تلك القبة. وفي عدد معتبر من المساجد التي أُنشئت في شمال أمريكا وكذلك في أوروبا، يُتخذ لها النمط الإسلامي الموحد(pan-Islamic) لأسباب عدة منها تنوع أصول المسلمين المشاركين في التمويل والذوق السائد بينهم وفكرة القداسة التي ذكرناها والمرتبطة بوجود منارة وقبة ضمن مكونات المسجد المعمارية و من أمثال هذه المساجد (جامع الكريستال في ماليزيا و Jamé Masjid Markham, Canada) (شكل 4).

-شكل 4: أمثلة على مساجد الطابع الإسلامي الموحد (Pan-Islamic). المصدر:
-www.archnet.org

وللأسف، فإن طغيان هذا النمط المعماري جعل المساجد تبدو غريبة في نسيجها العمراني في هذه البلدان، وهو ما يعكس غياب أي مجهود من أجل التحاور مع العمارة المحلية أو السائدة في تلك المناطق. لقد رصدنا بعض الأمثلة الايجابية ولكنها تبقى استثناء للقاعدة لأنها نادرة عموما.

4- الطابع المُجدَّد:

تتميز المساجد التي تنتمي إلى هذا الطابع بتوسط طابعها المعماري بين الإسلامي الموحد(Pan-Islamic) والتأريخي والحداثي. وتعكس هذه المساجد المرحلة التحولية للمسجد بين الحداثية في شكله والعصرية في وظائفه. ونلاحظ أن هذا النوع من المساجد قد احتفظ بأهم المقومات الشكلية للمسجد التاريخي وخاصة المنارة أو القبة أو الاثنين معا بينما حاول المعماري إدراج هذه العناصر حسب أشكال وباستعمال مواد بناء معاصرة مثلما نراه في المسجد الأبيض في ألبانيا و المركز الإسلامي في بنتزبرز. كما يقع هذا التجديد في الوظائف المرافقة للمسجد كذلك. ولعل أبلغ مثال لهذا التجديد ما نراه في مشروع جامع الجزائر الأكبر الذي هو قيد الإنشاء والذي آثر مصمّمه الاحتفاظ بالمنارة كشكل وإدراج وظائف جديدة فيها مثل فضاءات العرض وقاعات الأبحاث و المحاضرات. وغالبا ما نجد هذا النوع من المساجد في البلاد الغربية. كما ظهرت عيّنة من هذا النمط ايضا في دول الخليج و خاصة الإمارات لما شهدته هذه الدول من عولمة و انفتاح على كل التجارب المعمارية في العالم (الشكل5)

المسجد الأبيض - ألبانيا - 2005

Penzberg Islamic Forum. Germany

-شكل 5: النمط المجدد. المصدر: www.archnet.org

5-الطابع الحداثي (Modernist style):

و يتميز هذا الطابع بلغته المعمارية الحديثة والمتأثرة بخصوصيات العصر. وتقطع التصميمات والمفردات

المعمارية والإنشائية والتكنولوجية الخاصة بمثل هذه المساجد مع كل أشكال وممارسات الماضي. وعادة ما يكون هذا الطابع من نتاج معماريين ومموّلين تشكلت عقولهم وثقافاتهم في الغرب. ويُعتبر ظهور هذا الطابع متأخِّرا نسبيا مقارنة مع بداية العمارة الحديثة في الغرب والعالم. فأوائل المساجد التي صُمّمت على هذا الطراز لم تظهر قبل سنوات الثمانينات من القرن الماضي. كما أن انتشار هذا الطابع في عمارة المساجد محدود جدا وتركّز في الدُّول غير الاسلامية مثل الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة (The muslim society in San Fransisco USA) أو (Plainfield mosque) مع وجود بعض الأمثلة المبكرة أيضا في دول ذات غالبية إسلامية مثل ألبانيا (جامع شرف الدين أو الجامع الأبيض) و بشكل أقل في دول إسلامية مثل باكستان (The Pearl Mosque) وتركيا (مسجد المجلس الوطني في أنقرة) وبنجلادش (Chandgaon Mosque) (شكل 6)

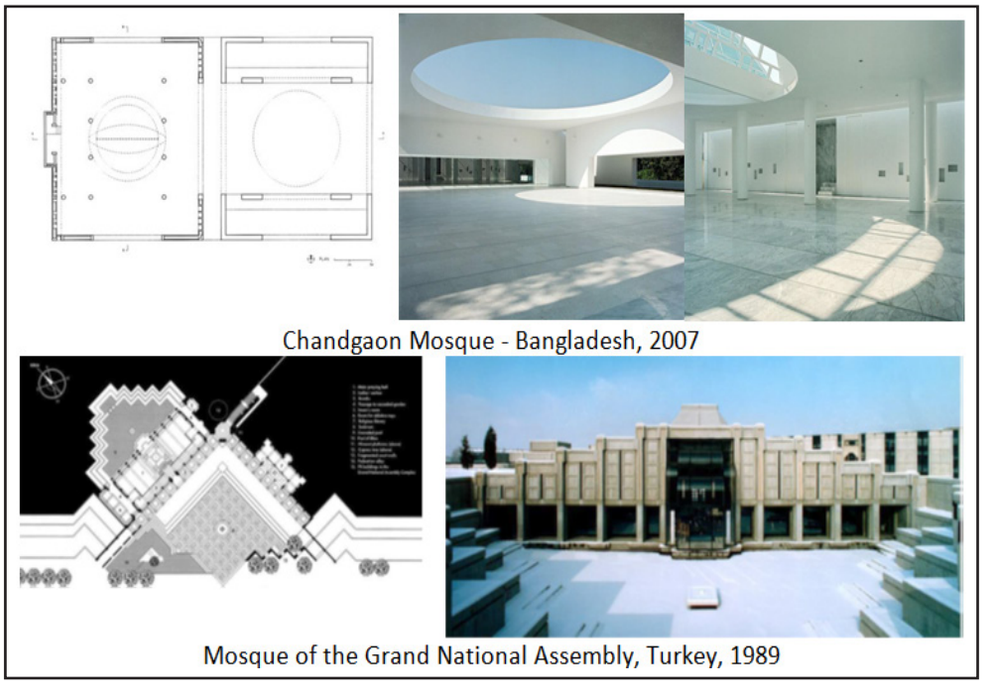

-شكل 6: أمثلة على مساجد ذات تصميم حداثي. المصدر جائزة الأغا خان-

ثالثا: ترتيب المساجد من حيث التمويل وآلية اتخاذ القرار والتصميم و البناء

1- مساجد ممولة من طرف السلطة المركزية

وتتمثل هذه السلطة في الأمراء والملوك والسلاطين والشيوخ والرؤساء والحكومات أو المؤسسات التي تمثل هذه الشخصيات. وهذا النوع من الجوامع ليس جديدا بل ظهر منذ القرون الأولى للإسلام (المسجد الأموي في دمشق و مسجد الفاتح في اسطنبول). وكان ذلك مصاحبا للمنعرج الجديد الذي أخذه التاريخ السياسي والاجتماعي وحتى الديني للأمة. فقد بدأ تشييد جوامع السلطة مع بداية الحكم الوراثي في الدولة الاسلامية وهو متواصل إلى يومنا هذا، وذلك رغم بعض التغييرات المهمة التي سنتحدث عنها لاحقا. ويتمركز هذا النوع من الجوامع في العالم العربي (جامع الحسن الثاني في المغرب)، وإن كان بعضها موجودا أيضا في جنوب شرق آسيا (جامع الاستقلال في جاكارتا).

وغالبا ما تأتي هذه المساجد كتعبير عن السلطة الحاكمة وقوتها، كما تحاول تلك المساجد من خلال لغتها المعمارية أن تعبر ولو شكليا على الهوية الوطنية للبلد. ويصعب أحيانا على هذه المباني تحقيق ذلك فعليا بسبب عزلتها المادية والاجتماعية عن محيطها، حيث تكون على هامش المدينة أو الحي ولا يكون للمواطنين أي رأي أو قرار في إنشائها و بالأحرى الارتباط بها. و قد أصبحت الجوامع الضخمة المنفصلة عن محيطها العمراني والاجتماعي ظاهرة حديثة تفاقمت مع ظهور الدولة الحديثة في العالم الاسلامي، والتي تزامنت مع فترة استقلال هذه الدول أو تبلورها على شكلها الحالي. وتتميز هذه الجوامع الضخمة عموما، بتعدد مرافقها وسعتها، وهي تستهلك بسبب ذلك الأراضي الواسعة والأموال الطائلة. ولا يخرج طابعها المعماري في الغالب عن الطابع الاسلامي الموحد (شكل 4) أو التأريخي (شكل 3).

وربما حان الوقت لإعادة النظر في آليات نقد عمارة المساجد الحديثة بحيث لا تقتصر على التركيز على العناصر الشكلية والتقنية والوظيفية فحسب، بل نضيف إليها عناصر مرتبطة بالمبادئ الدينية في البناء وربما العناصر الروحية أيضا. كما يمكن توسيع تطبيق هذه الآليات في نقد وتحليل العمارة عموما ضمن المجتمعات المسلمة وعند المسلمين.

2- مساجد ذات التمويل الفردي:

لهذا النوع من المساجد وجوده العريق. ولعلّ أشهر مثال عليه في المغرب الإسلامي جامع القرويين في مدينة فاس بالمغرب الأقصى. حيث وقفت على بنائه امرأة مسلمة وهي فاطمة الفهرية حين حلت بهذه المدينة آتية إليها من مدينة القيروان و قررت ان توقف أموالها لبناء جامع ومدرسة بهذه المدينة. في عصرنا هذا عادة ما يكون الطابع المعماري

لهذا النوع من المساجد متأثرا بشخصية المعماري وأفكار من أوقف ماله لبناء المسجد، وإن طغى الطابع الإسلامي الموحد على معظم الأمثلة التي وقفنا عليها (مسجد الأمين في مسقط و مسجد مصطفى محمود في القاهرة). وأحيانا تأخذ هذه المساجد الطابع المعماري للمنطقة التي ينتمي إليها المُتبرِّع، خاصة إذا أقيم المسجد في دولة غير اسلامية.

وبالنسبة للوظائف المرافقة للجامع، فهي في الغالب متنوعة، مع الحضور البارز للمدرسة القرآنية والمكتبة الاسلامية وبعض المحلات التجارية. وتكون بعض المرافق مرتبطة عادة، بميدان تخصص أو نشاط المتبرّع الاقتصادي (مثال جامع مصطفى محمود في القاهرة الذي يضم مستشفى للعلاج). لقد كان للمتبرعين الفرديين من ذوي الثروات دور متواصل في تشييد المساجد والمدارس ودور القرآن وكذلك الطرقات والمستشفيات والجامعات والآبار والنوافير والفنادق وغيرها. وتجدر الإشارة هنا إلى تقلص هذا الأداء خلال الخمسين سنة الأخيرة حيث بات معظمهم يكتفي بتمويل المساجد والجوامع وما رافقها من وظائف تعليمية فحسب.

3- التمويل من طرف جمعية أهلية:

المساجد الممولة من طرف الجمعيات الأهلية هي الأكثر رواجا تاريخيا وجغرافيا. ويمكن اعتبار هذا الأسلوب هو الأقرب إلى الأسلوب الجماعي الذي بنيت به أولى المساجد في الإسلام، وهي الطريقة التي ما فتئت تُمارس إلى يومنا هذا وإن اختلفت ظروفها وآلياتها. ويُعتبر بناء المساجد من الأعمال التي نجحت في تنفيذها الجمعيات الأهلية، وهذا مثال جيد على الدور الايجابي والبنّاء الذي يقوم به المجتمع المدني في المشاركة في تكوين بيئته العمرانية وإنشاء عمارة تستجيب الى احتياجاته و تتكامل مع هويته. كما نلاحظ كثيرا من الواقعية في حجم المساجد التي تقوم عليها الجمعيات الأهلية حيث تكون ذات سعة مرتبطة بعدد أفراد الجماعة التي أُنشئ من أجلها.

وتُصمَّم هذه المساجد وتُشيَّد بالتعاون بين الجماعة أو الجمعية الأهلية التي تمثلها من جهة، والمعماري الذي يتم إختياره عن طريق المسابقة أو بشكل مباشر وشخصي. عمليا تُحدَّد الهوية المعمارية للمعلم بعد أخذ ورد بين أفراد الجمعية والمصمم. و غالبا ما ينتج عن هذا التعاون مسجد ذو طابع اسلامي موحد وذلك عندما تكون الطرق الحديثة هي المتبعة في عملية التصميم و الانشاء. أما إذا تمت العملية حسب الطريقة التقليدية واعتماد معلمي البناء، فعادة ما يكون طابع المسجد هو الطابع المحلي السائد في المنطقة المعنية (مسجد ياما في النيجر و نيو نيو في مالي – شكل 1).

1.3- مساجد الجاليات المسلمة في الدول الغير مسلمة

لعل المساجد الجماعية أو الأهلية هي من أكثر الأنواع تواجدا في الغرب. و قد بدأت في الظهور بعد الحرب العالمية الأولى، حيث استقرت العديد من الجاليات المسلمة هناك وتوزعت فيها بحسب ارتباط كل دولة بمستعمراتها. فبريطانيا استقبلت جاليات ذات أصول هندية و باكستانية، وفرنسا وأوروبا الغربية جاء مسلموها من المغرب العربي وبعض دول إفريقيا، بينما استقطبت أمريكا الشمالية جاليات مسلمة من مختلف البلدان. وتتمثل مصادر تمويل معظم المساجد التي بنيت في الدول غير الاسلامية فيما تجمعه الجماعات المحلية بالتعاون مع بعض الأثرياء من الجاليات المسلمة أو بالتنسيق مع بعض سفارات بلدان إسلامية.

وغالبا ما يكون موقع المسجد في مثل هذه الحالات محددا بقوانين التخطيط العمراني الخاصة بالبلد المعني. وتأخذ عمارة المساجد في هذه البلاد الطابع التأريخي للبلد الذي تأتي منه أغلبية أفراد الجماعة أو البلد الذي ينتمي إليه الممول الأساسي للمشروع. ومن هذه الأمثلة جامع باريس ذو الطابع المغربي ومسجد طوكيو ذو الطابع العثماني (الشكل 7).

-شكل 7: أمثلة عن مساجد تأريخية في البلاد الغير إسلامية-

ويمكن للمسجد أن يلتحف هوية إسلامية موحدة أو تأريخية في شكله الخارجي وفضاءاته، بينما تتنوع الزخرفة الداخلية وتأخذ اتجاهات انتقائية (Eclectic) ويتأثر هذا النمط المعماري للمسجد بآراء الجمعية المُشرفة على التصميم وكذلك بالحالة الاجتماعية والسياسية للجالية التي تمثلها تلك الجمعية. وفي الحالات التي ينتمي فيها أغلب أفراد الجماعة إلى فئة ذات مستوى معرفي وثقافي معين فإنهم يقومون باختيار المعماري المناسب ويتعاونون معه في تصميم المبنى. وفي مثل هذه الحالات تكون خيارات المعماري الأسلوبية والتقنية هي المحددة لشكل المسجد ولغته المعمارية. وقد لاحظنا ذلك في مثال مسجد دار السلام في نيومكسيكو والذي صممه المعماري المصري حسن فتحي، حيث جاءت عمارة المسجد معبرة عن النوبية المصرية التي يعشقها هذا المعماري وبنى بها أغلب مبانيه. وعندما تكون قوانين البناء في البلد المستقبِل مقيِّدة، فإن ذلك يؤثر أيضا في شكل المسجد وأسلوبه المعماري. و قد يحدث أن أخذت بعض مساجد الجمعيات المحلية طابعا حداثيا أيضا Plainfield Mosque (USA – شكل 8).

ولعله من الأجدر للجاليات الإسلامية التي استقرت في المهجر أن تحذو حذو الرسول الأكرم (ص) لمّا بنى مسجده في المدينة، حيث إنه بنى بنفس طراز المدينة التي استقبلته ولم يفرض أي تصميم على الأنصار بل تركهم يبنون وفق أعرافهم في ذلك الوقت. و لا بد أن يكون هذا الموقف قد ترك في نفوس غير المسلمين من سكان يثرب آنذاك أثرا جميلا. ونحن من الذين يدعون إلى العمل بهذا الرأي النبوي والسنة الشريفة، فعوضا عن محاولة الدعوة الى الإسلام بتكرار وفرض نفس الأشكال السائدة في البلاد المسلمة على أساس ربط خاطئ لقداسة الشكل بقداسة الوظيفة (Spahic O., 2008)، من الأجدر والأيسر على المسلمين في الغرب بناء مساجدهم بأساليب البلاد التي استقبلتهم واستعمال التقنيات السائدة فيها، وذلك في تعبير عن سعة صدر وانفتاح دين الإسلام على الانسانية جمعاء. إنه نفس ما كان يمارسه المسلمون بصفة عامة لما كانت الحضارة الإسلامية في أوج تطورها وازدهارها. فلم يكن يعنيهم حينئذ الحفاظ على هوية شكلية تفرّق عمائرهم عن مباني غيرهم من البشر مهما كانت دياناتهم أو معتقداتهم مثلما كان يفعل الروم والإغريق. بل بنى المسلمون الفاتحون مساجدهم في أشكال وبتقنيات أقرب ما تكون الى الأشكال والتقنيات المستعملة في دور عبادة تلك الأصقاع التي وصلوا اليها. لذلك لم فإن نمط جامع الفاتح الذي يعتبر أصل الطابع العثماني، الذي استوحي كلية من عمارة كنيسة آيا صوفيا المسيحية قد انتقل في اعتبارنا بالخطأ إلى شوارع طوكيو، (الشكل 9)

-شكل 9: الطابع العثماني للمسجد يأخذ مقوماته الشكلية من الكنيسة البيزنطية-مسجد آيا صوفيا-

-شكل 9: الطابع العثماني للمسجد يأخذ مقوماته الشكلية من الكنيسة البيزنطية-المسجد الأزرق-

ونشير هنا إلى نقطة أخرى مهمة وإيجابية في العمل على إنشاء المساجد، وهي التنظيم الكبير الذي يتعلق بالجماعة المسلمة وبناء مسجدها أو جامعها والتي لا نجدها في غيره من المرافق. ويشمل هذا التنظيم المحكم والمتواصل آليات التمويل والانفاق والتواصل والتحاور وصنع القرارات والوقوف على المصممين ثم متابعة بناء المسجد بعد الحوار مع الجيران والسلطات من أجل الوصول إلى نقاط اللقاء والاتفاق. ثم بعد ذلك لا تتوقف الحركة والنشاط الحثيثَين بل يمتدان إلى اللمسات الأخيرة مثل إكمال الفرش والتجهيز و بعد ذلك الصيانة والتنظيف اليومي، إلخ.

ويجدر بنا التساؤل: لماذا لا تُطبّق هذه الخبرة النفيسة التي اكتسبتها المجتمعات المسلمة من خلال تنسيق جهودها في بناء مساجدها، في الاعتناء بالمدينة وتعزيز مرافقها الأخرى التي تحتاجها بشكل ضروري، عوضا عن ترك مثل هذه الأعباء على كاهل السلطة المركزية أو المحلية بحيث نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم من مدن وبيئات عمرانية غريبة عن احتياجات السكان وتطلعاتهم.

4- المؤسسات التجارية كممول لبناء المساجد

كان لهذا النوع من آليات تمويل بناء المساجد في البلاد الإسلامية حضورا معتبرا خلال كل حقب الحضارة الاسلامية، وإن كان متفاوت الأهمية حسب الفترات التاريخية. فقد كان للمسجد والجامع مركزية ضمن المؤسسات التعليمية من مدارس وجامعات، وكذلك بالنسبة للمؤسسات الخيرية كالمستشفيات ودور الفقراء واليتامى. كما يمكن اعتبار المساجد التي كانت تُلحق بالفنادق أو الخانات واحدة من هذا النوع الذي بتنا نعرفه في عصرنا الحاضر كذلك. ومثل ذلك مسجد السلطان خان و Ulu Camii Darulshifa في تركيا في عهد الدولة العثمانية. ولم تختف هذه النوعية من المساجد خلال فترات الاحتلال إلا لتعود الى الظهور من جديد في أشكالها الحالية والمتجددة. فرأينا عديد المؤسسات التي مولت مساجدها وربما جوامعها مثل بعض الجامعات والمستشفيات والمطارات وغيرها. وفي مثل هذه الحالات يقوم المسجد أو الجامع بدور محوري، ليس فقط من ناحية وظيفته كمكان يجتمع فيه موظفو أو عُملاء المؤسسة وإنما كذلك من حيث موقعه الجغرافي والفضائي ضمن مخطط المؤسسة. و من أمثلة ذلك مسجد جامعة السلطان قابوس في عُمان، وجامع مطار الرياض الدولي، وجامع "بولادشهر" في إيران، ومسجد جامعة قسنطينة في الجزائر(شكل 10).

وخلال الفترة الأخيرة ومع التحولات التي عرفها أسلوب الحياة لدى بعض المسلمين رأينا كيف ارتبطت المساجد بأماكن لم تكن موجودة من قبل. و من أمثلة ذلك أماكن الترفيه و السياحة و التسوق. فأصبحنا نرى مساجد الفنادق الفخمة، مثل مسجد فندق اللؤلؤة في باكستان، و مساجد مراكز التسوق أو "المولات".

جامع جامعة السلطان قابوس –عُمان-

مسجد مركز الراشد التجاري – الخبر- السعودية

Poulad Shahr Mosque – Iran

جامع جامعة الأمير عبد القادر – الجزائر-

-شكل 10: أمثلة على مساجد و جوامع مؤسسات -

«الصورة المسبقة» التي تحملها المجموعة عن أنسب طابع يعبر عن هويتها. وغالبا ما تلجأ الى الطابع الإسلامي الموحد حيث بات من الصعب العثور على تجارب تتعدى هذه الصورة. ومن الطريف أن نجد مجتمعات، مثل المجتمع العماني الذي كانت عمارة مساجده عمارة محلية تقليدية رفيعة الذوق[3]، تتحول عمارتها خلال النصف الأخير من القرن العشرين الى عمارة إسلامية موحدة تأخذ من هذا الطابع الجهوي ومن ذاك لتفقد شيئا فشيئا من جماليات وأصالة المسجد العماني القديم (Benkari 2014) (شكل 11).

المسجد الامين

مسجد حارة البلاد

-شكل 11: المسجد العماني بين الأصالة و التقليد -

رابعا: عمارة المسجد و علاقة المجتمع المسلم مع بيئته العمرانية والاجتماعية

بعد هذه المناقشة للأنماط المعمارية للمساجد في عصرنا ولآليات بنائها وتصميمها، يتناول هذا الباب بعض التساؤلات حول دور المجتمع المسلم ومسؤوليته في تكوين بيئته العمرانية. ويمكن تحليل هذا الدور من منطلق التكليف الشرعي ومسؤلية الانسان بصفته خليفة الله في الأرض[2]. وتُمَكننا دراسة كيفية التخطيط و التنظيم لإنشاء المساجد من تحليل وفهم العلاقة التي على المسلم تحقيقها مع الطبيعة التي تحيط به ومع أخيه الإنسان سواء شاركه في اعتقاده الديني أم لا. وسيُركز تحليلنا لطبيعة هذه العلاقة على الصورة التي أرادت المجتمعات المسلمة أن تعكسها عن نفسها وهل أن أشكال التعبير عنها كانت تتغير حسب وضعية الجماعة المسلمة من حيث كونها تعيش في بلد مسلم أو غير مسلم؟ وبالفعل، لاحظنا عبر الأمثلة التي اعتمدناها أن علاقة المجموعة المسلمة بمحيطها العمراني والإجتماعي تتغير عادة على حسب أغلبيتها أو أقليتها في البلد الذي تعيش فيه.

1 - ففي حالة ما إذا كانت المجموعة المسلمة تعيش في بلادها، غالبا ما يكون نمط مساجدها يميل الى الأنماط التأريخية مع الرُجوع الى الشكل الأقرب الى ثقافتها وإلى

أما إن كانت المجموعة المسلمة تعيش في مجتمع غير مسلم، مثلما يحدث في الغرب أو في دولة متعددة الديانات، مثل الهند وماليزيا ولبنان، أو فيها أكثر من مذهب إسلامي، مثل إيران و العراق و البحرين و السعودية و الكويت و عمان و سوريا، فغالبا ما يكون التنافس على مستويين أساسيين:

-التميز كمجموعة مسلمة على باقي الديانات مثلة حالة مسلمي ماليزيا و الهند و لبنان و والغرب عموما.

-التميز كمجموعة مذهبية ، و هو ما يحدث عادة بين السنة والشيعة..

ففي الحالة الأولى يكون الطابع المعماري الذي تلجأ إليه المجموعة الأولى هو الطابع الإسلامي الانتقائي الموحد (Eclectic)، حيث تحضر المنارة والقبة بشكل آلي ودون الإعتناء بطرزها وأشكالها وأحجامها ومدى تلاؤمها مع الطابع العام للمسجد ولمحيطه. بل يكفي وجود قبة ومنارة دون اللجوء لبحث متمعن في هذه المكونات وتحقيق التناسق بينهما. وقد أشار البحث إلى النتائج السلبية التي تترتب عن مثل هذه الخيارات الآلية، حيث تؤثر على تماسك المجتمع وتتسبب في انغلاق مختلف فئاته و تفرّقها. أما بالنسبة للمسلمين فإنها تنتهي إلى عزلتهم وإخفاقهم في انفتاح دينهم على الآخرين.

أما في الحالة الثانية، أي حالة التميّز كطائفة مذهبية، فإننا نلاحظ لجوء الشيعة مثلا إلى عمارة إسلامية "كلاسيكية" في تصميم مراقد أئمتهم. وعادة ما ترجع طرزها إلى زمن الخلافة العباسية أو العمارة التأريخية عموما، وذلك باتخاذ بعض المفردات والأشكال من العمارة السلجوقية والصفوية والبويهية والمغولية.

في المقابل يرجع السنة الى الطابع الكلاسيكي المستوحى من النموذج الأموي والمغربي والعثماني، مع بعض الحالات التي يُعتمد فيها على الأنماط التأريخية وخاصة المغولية[4]، أو على الطابع التقليدي المحلي[5]، أو مزيج من كل ذلك كما هو الحال في دول الخليج العربي. و في الغالب، لا تكون هذه الخيارات التي توصلت إليها هذه الجماعات، حلولا إبداعية، وخاصة في الغرب حيث تُعتبر الجاليات المسلمة حديثة العهد بهذه الأوطان وليس لها أي تراث معماري إسلامي عريق. ذلك يحدث بالرغم من الفرصة الذهبية التي مُنحت لعمارة المساجد في الغرب كي تتحرر من قيود التقليد الأعمى للشكل وتُبدع أنماطا جديدة أكثر تماشيا مع التطور الاجتماعي والثقافي والتكنولوجي ومع اللغة المعمارية السائدة في تلك الأوطان. ولكن غالبا ما تحبذ هذه المجموعات اللجوء الى النمط الإسلامي الموحد أو تلك السائدة في أوطانها الأصلية، على أن تسعى للإنفتاح على عمارة وهوية البلد الحاضن لها كي تبدع عمارة إسلامية مُعاصرة بأتم معنى الكلمة.

الخاتمة

إن انتشار الاسلام في شتى الأوساط الاجتماعية والأصقاع الجغرافية لدليل على طابعه الاحتوائي وانفتاحه على الانسانية كافة. وهذه الحقيقة هي عكس ما يُروَج له في الغرب، سواء كان ذلك عن جهل بهذا الدين ومجتمعاته المركبة أو عن قصد تشويهه و رسم صورة سيئة عنه. ومن أجل زيادة الايضاح، فإن لدراسة عمارة المساجد المعاصرة من حيث أنماطها المعمارية وآليات بنائها وتحليل الصورة التي يريد المجتمع الذي أنتجها أن يعكسها عن هويته، أهمية لا يمكن انكارها، وذلك من أجل فهم تطلعات واحتياجات المجتمعات المسلمة الحديثة. وليس من المبالغة القول أن التعرُّف على ديناميكيات التطوُّر في تصميم المساجد معناه بداية فهم التحولات التي تمرُّ بها المجتمعات المسلمة المعاصرة أينما كانت. وربما سينبثق عن هذا الفهم رؤى متجددة لعمارة المسجد باعتباره المكان العام الذي يحتضن المجتمع المسلم في أوقات العبادة و يمكّن الأفراد في التواصل فيما بينهم ومع المجتمعات والأفراد غير المسلمين.

لقد بدأ بحثنا هذا بمناقشة مصطلح القداسة في عمارة المساجد وفصَّلنا فيما يُمكن اعتباره مُقدَّسا فيها وما قُدِّس منه خطأ، ثم تناولنا أشكال وآليات تمويل وبناء المساجد والعلاقة التي يُنشئها هذا المبنى مع محيطه العمراني والاجتماعي. وكشف تحليلنا للأنماط المعمارية السائدة في عمارة المساجد المعاصرة عن وجود "صورة ذهنية مُسبقة" (stereotype) مُهيمنة على هذه العمارة عند المعماريين و عند زبائنهم على حد السواء، حيث أن معظمهم يجهل أو يتجاوز الواقع التاريخي المتنوع والمركب للعمارة الإسلامية، ويتعامل مع "صورة الماضي" بميثولوجية وليس بحكم أنها نتاج تاريخي و إجتماعي و فنّي يمكن نقده و حتى تجاوزه.

وتوصلت دراستنا الى أنّ هذه "الصورة الذهنية المُسبقة" وما ارتبط بها من أفكار قد ساهمت في "تجميد" تطور عمارة المساجد بصفة خاصة والعمارة الإسلامية بصفة عامة. فرغم أن النصف الأخير من القرن الماضي كان زاخرا بالتحولات و الأفكار المعمارية و تياراتها، فقد بقيت العمارة الإسلامية في جُلّها متقوقعة ومنعزلة في بوتقتها التاريخية لم تؤثر فيها تلك التحولات كثيرا. ولإبراز هذا الوضع وقف هذا البحث على بعض التجارب القليلة التي تجاوزت الطابع الشكلي المُهيمن للمسجد والتي ولّدت أشكالا وفضاءات جديدة، أو كانت مُجدِّدة من حيث الوظائف المصاحبة لهذا المبنى.

ومن جهة أخرى كشفت الدراسة عموما عن فقدان

المسجد لدوره الاجتماعي وموقعه في المدينة وتحوّله إلى بناء منعزل لا يُذكر إلا وقت الصلاة ولا ترتبط عمارته بهوية الجماعة التي تستعمله. ورافق هذا التهميش الوظيفي للمسجد في حياة وعلاقات المجتمع المسلم ظاهرة دخيلة على الفكر الإسلامي، ربما لم تكن لها هذه الهيمنة قبل سبعينيات القرن الماضي، وهي التنافس والتباهي بالشكل وخاصة بالأحجام والأبعاد المادية للمسجد. وقد بدأت هذه الظاهرة ابتداء بالجوامع المموّلة من طرف السلطة. فبعد التنافس بعلو الأبراج وسعة السدود وطول الجسور، التفتت السلطات في الدول الإسلامية الى التباهي بعلو منارات المساجد وسعة بيوت الصلاة ومقاس سجادها وضخامة المصابيح فيها، إلخ. وممّا زاد في الأزمة التي بلغتها عمارتنا هو تقليد الأفراد للحكام والحكومات بحيث أصبحت المساجد المبنية بأموالهم جزءا من مسابقة الأحجام والمقاييس. وفي ذات الوقت لوحظ تقاعس الجمعيات الخيرية وأصحاب الأموال في دعم المرافق الأهلية الأخرى واقتصارهم على تمويل المساجد وحسب، وذلك على الرغم من أن كل المجتمعات المسلمة، غنيها وفقيرها، داخل البلاد الاسلامية وخارجها، في أشد الحاجة إلى مرافق لا تكاد السلطات المركزية تؤمّنها كالمكتبات والمدارس والحضانات ونوادي الأطفال والنوادي الثقافية والحدائق والآبار وقنوات المياه والنوافير والمراحيض العمومية والمستشفيات والمستوصفات وبيوت الإيواء لعابري السبيل سواء اللاجئين أو المعاقين أو المشردين، وغيرها من المرافق التي أصبحت غاية في الأهمية في حياة المجتمعات المعاصرة.

وقد منحتنا هذه الدراسة التي شملت معظم التيارات الفنية والفكرية المعاصرة في عمارة المساجد فرصة لتسليط الضوء على الدور الفعال والايجابي الذي تقوم به الجمعيات الأهلية والمجتمعات الإسلامية في توفير دور عبادتها تمويلا وتصميما وإنشاء وتأثيثا وصيانة ورعاية. وقد أوضحنا أن هذا الدور كان مستمرا منذ أولى المساجد التي بنيت في تاريخ الأمة الإسلامية وإلى يومنا الحاضر. كما بيّنت الدراسة أن هذه الممارسة لم تنقطع ولم "تتجمّد" في شكلها وآلياتها على طول تاريخ الأمة، بل تأقلمت وتحورت وانسجمت مع متطلبات وتطورات العصور والمجتمعات. ولعلها تكون الطريق الذي ربما سيقودنا الى تجاوز الانفصام والتحجُّر الذي تعاني منه العمارة الإسلامية منذ نهاية القرن التاسع عشر. ولذلك فإنه من المهم دراسة مثل هذه الآليات ومحاكاتها لإرساء فهم جديد لكيفية الوصل بين عمارة الأسلاف وعمارة المستقبل. وبالوصل لا نقصد التقليد السطحي لأشكال الماضي بوسائل وتقنيات الحاضر. إن ما نرمي إليه هو ما عبّر عنه المعماري راسم بدران حين قال: "نتعلم الفعل من التاريخ ولكن لا نستعير المنتوج" (Khan, H. 1990). وعوضا عن الضياع بين التقليد الفاشل وفوضى الأساليب المعمارية، من المنهجي الرجوع الى معرفة ظروف نشأة اللغة المعمارية في تلك المجتمعات عند دخول الإسلام اليها، ونقطة بدء الإبداع من هناك.

المراجع:

(1) مثلما جاء في الآيتين 125 و 127من سورة البقرة. و الآية 36 من سورة النور و كذلك الآية 108 من سورة التوبة. كما تبيّن الآيات 144 و 145-149من سورة البقرة أن القبلة هي شطر المسجد الحرام. بينما تحُثُّ الآية 125من نفس السورة على تطهير المسجد الحرام للطائفين و العاكفين و الرُكع السجود. و تحمل الآية87 من سورة يونس أمرَ اللهِ لنبيه موسى و أخيه هارون أن يجعلا بيوتهم قبلة.

(2) سورة البقرة، آية 30.

(3) وذلك بسبب تأثرها بالمذهب الإباضي الغالب، حيث كانت قمة في البساطة والأناقة، وذلك رغم تجردها من الزخارف و التزاويق الخارجية وغياب المنارات والقباب عنها الا في حالات نادرة جدا.

(4) عادة في الجوامع التي يراد لها أن تكون فخمة.

(5) مثل الطابع النجدي في السعودية.

المصادر:

Benkari-Boudidah N. (2014) : « L'architecture des mosquées Ibadites au M'Zab, Djerba et Oman: Lecture des principes de conception et de construction » Presses Académiques Francophones .

Davidson, Synthis, C. (Editor) 1998: Legacies for the Future, Contemporary Architecture in Islamic societies: Aga Khan Award For Architecture.

Haider, Gulzar, 1996: Faith is the Architect, Reflections on the Mosque, Architecture & Comportment / Architecture & Behavior, Vol. 11, No. 3-4, pp. 243-248

Hillenbrand, Robert: "Islamic Architecture: Form, Function, and Meaning", Columbia University Press.

Khan, Hasan-Uddin, 1990: "The Architecture of the mosque, An overview and Design Directions" in Islam expressed in Architecture, Aga Khan Award For Architecture, pp. 109-142

Serageldin, Ismail, 1989 "Faith and environment", in space for freedom, London, Butterworth Architecture.

Spahic Omer, 2008: "Towards understanding Islamic Architecture", in Islamic studies, 47:4, pp. 483-510.

www.archnet.org

View publication stats